الوعي القومي في شعر احمد رفيق المهدوي ١٨٩٨ - ١٩٦٢

المدرس المساعد
حامد مردان السامر
جامعة البصرة – كلية الآداب

يمثل الأدب الليبي المعاصر تحولا مهما على صعيد الحركة الثقافية الليبية المعاصرة ،فقد حاول العديد من الأدباء والشعراء أن يضعوا الأساس الأول في صرح الثقافة الليبية من خلال طرح العديد من النتاج الإبداعي الذي تمثل في العديد من النصوص الشعرية ،وقد استطاعت هذه النصوص أن تتخطى الحدود الإقليمية الضيقة إلى فضاء أدبي أوسع وأكثر شمولية، وبذلك استطاع الأديب الليبي أن يؤسس أركان حركة أدبية واسعة استطاعت أن تحفر بصماتها على صفحات التاريخ الأدبي،وربما كانت المدرسة الكلاسيكية في الشعر الليبي على رأس هذه الحركات الأدبية التي تمثلت في المنجز الإبداعي للشعراء (احمد رفيق المهدوي ، واحمد الشارف ، واحمد قنابة) وغيرهم من الشعراء الذين تأثروا بالاتجاه الكلاسيكي السائد في العالم العربي والذي كان يمثله الشعراء حافظ إبراهيم واحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي ،ويرى بعض الباحثين إن هناك ملامح مشتركة تربط بين أصحاب الاتجاه الكلاسيكي في العالم العربي وبين هؤلاء الشعراء الليبيين،وهناك سمات مشتركة تجمع بينهما ، ولعل من ابرز هذه السمات هي (الارتباط بقضايا العصر والأحداث العامة،ومحافظة على تقاليد القصيدة العربية مع ضعف التجربة الذاتية، والتقريرية والأسلوب المباشر)*(1).

وهذه السمات الشكلية والمضمونية التي توصل إليها الباحث من الممكن أن تكون سمات عامة لا تميز الاتجاه الكلاسيكي عن غيره من الاتجاهات الشعرية التي عرفها الأدب

العربي المعاصر ، فالتقريرية والمباشرة وضعف التجربة هي من العيوب الفنية التي تعاني منها القصيدة العربية، ولعلها تكون موجودة في الاتجاه الكلاسيكي ، وتكون موجودة أيضا في مدرسة الديوان كما تجدها واضحة في شعر عباس محمود العقاد ونجدها كذلك عند بعض شعراء مدرسة أبوللو. فأعلام الاتجاه الكلاسيكي في العالم العربي (برزت في أشعارهم نغمة طالما سمعناها ،وصورا مرت بنا كثيرا واستوقفتنا مضامين لا علاقة لها بحاضرنا، بل تمثل ماضيا سحيقا.وتظهر خصائص مجتمعات قديمة لا تمت إلينا بصلة)*(2)

فالشعر الكلاسيكي يصدر عن رؤية تقليدية محضة لا تمثل الواقع المعاصر الذي ينتمي إليه الشاعر ولا تحاول أن تطرح مضامين جديدة توضّح موقف الشاعر من الأحداث الواقعية التي عاش الشاعر في عزلة عنها،فقد تبنى أصحاب هذا الاتجاه القضايا الشكلية في القصيدة وتمسكوا بالأسس والأنماط التراثية التي تشكل فضاء القصيدة العربية وبنائها التقليدي المتوارث عبر الأجيال، فقد التزموا القافية والروي من بداية القصيدة حتى نهايتها ،ولم يحاولوا التمرد على العروض العربي، وتمسكوا بالوحدة الجزئية للقصيدة التي تعد البيت الشعري وحدة بنائية مستقلة، واستطاعوا المحافظة على اللهجة الخطابية واللجوء إلى الصور والقوالب الجاهزة والألفاظ التقليدية التي تنفصل أحيانا عن سياقها الحضاري الذي تكتب فيه، وبذلك ظلت القصيدة التقليدية قصيدة منبرية تنتمي إلى العصور التاريخية أكثر من انتمائها إلى الواقع الذي ينتمي إليه الشاعر ، ومن هنا حققت القصيدة اغترابها الزماني وانفصالها عن الوعي الذي يصوغها، وأصبحت القصيدة تنتمي للتاريخ أكثر من انتمائها للحاضر، ويمكننا القول أن القصيدة الكلاسيكية هي نص تراثي يكتب بحروف معاصرة وشعر هذا الاتجاه (كان بمثابة انفتاح واسع على الموروث الشعري العربي بكل عصوره وشعرائه بلا فارق أو تمييز، ومن ثم أصبحت القصيدة العربية مزيجاً معقد العناصر،مستمدة من أكثر من مصدر ،وأكثر من اصل وأصبح الشاعر التقليدي نفسه كالصائغ الذي يصوغ قصيدته من عناصر ومواد بالغة التنوع) *(3)

فالتناص الشعري على مستوى النص ليس عيباً فنياً يسجل على ذلك النص، لان كل منجز إبداعي هو عبارة عن مزيج من تراكمات نصية ورؤى تراثية سابقة بعد أن تخضعا للانتقاء والتأليف *(4)، ولكن الخلل يكمن في عدم قدرة الشاعر على إذابة

هــذه التراكمات النصية في نسيجه الشعري الخاص ، ولــذلك ظــل الــنص الشــعري الكلاسيكي بناءً تقليدياً مفككــاً في بعض الأحيان .

وينتمي هؤلاء الشعراء(المهدوى،والشارف،وقنابة) إلى هذا الاتجاه الكلاسيكي الذي كــان سائداً في العالم العربي وتأثروا بالمعطيات الفنية التي طرحها ذلك الاتجاه علــى صــعيد الساحة الثقافية، ولذلك تعرض هؤلاء الشعراء إلى انتقادات فنية مثلمــا تعــرض إليهــا أصحاب الاتجاه الكلاسيكي في العالم العربي، وبالرغم من الانتقادات التي توجه إلى شعر (المهدوى،والشارف،وقنابة) ألا أن هؤلاء قد أضافوا الكثير إلى الأدب الليبي فقد (كانت هذه الإضافات التي قدمتها هذه المدرسة_ رغم ما يمكن أن يؤخذ عليها فنيــاً_ إضــافات حاسمة، فقد برزت للشعر الليبي ملامح لم تكن واضحة ، ووضعت العلامة فــي طريــق تطوره ونموه، فقبل هذه المدرسة لم يكن للشعر تاريخ في بلادنا) *(5)

ومن هنا نرى أن البداية الحقيقية للأدب الليبي المعاصر ظهرت عند ظهور هذه المدرسة الكلاسيكية وأعلامها، وان كانت هناك محاولات فردية خجولة ولكنها لا ترقى إلى تشكيل رؤية فنية أو اتجاه فني،وإنما ظلت أصواتاً منفردة لم تشكل ظاهرة فنية يمكــن الإشــارة إليها ٠

فهذه المدرسة بما تحمله من سمات حاولت أن تؤسس بدايــة الحركــة الليبيــة الأدبيــة المعاصرة ، واستطاع رواد هذه المدرسة بما يمتلكون من مواهب أن يؤرخــوا لظهــور التيارات الأدبية والفكرية التي جاءت بعدهم وأصبحوا بحق نقطة فاصــلة فــي التــاريخ الأدبي الليبي المعاصر ٠

وسوف نتعرض لأبرز رواد هذه المدرسة وهو الشاعر احمد رفيق المهدوى ونحــاول أن نسلط الضوء على إرهاصات الوعي القومي في شعره ، والمهدوي ينتمي إلــى الاتجــاه الكلاسيكي في الشعر العربي الحديث، وقد تأثر تأثراً واضحاً بأبــرز أعلامها (شوقي، وحافظ،والزهاوي،والرصافي،والكاظمي) ، وارتباط الشاعر بهذه المدرسة واضح الدلالة من حيث البناء الفني للنص الشعري، ويتضح ذلك أيضا من خلال دعوتــه إلــى تجديــد القصيدة العربية متأثراً بذلك بالشاعر جميل صدقي الزهاوي الــذي كان المهدوي يترسم خطاه في منهجه التجديدي ، بالرغم من أن الشاعر اطلع على نتاج المدرسة الكلاسيكية الأ انه وجد نفسه يميل إلى الاتجاه التجديدي الذي كــان يتزعمه الزهاوي ٠ ويعلل الأســتاذ

التليسي ذلك حين يـــرى أن الشاعر (اقتنع بعد تجربته الأولى أن البساطة التـــي يـــدعوا إليها الزهاوي هي اقرب إلى نفسه وأدنى إلى قدرته من هذه الصياغة الموسيقية المتينـــة التي يتميز بها شوقي) *(6)

بينما يرى باحث آخر أن ما أغرى رفيق إلى هذا الاتجاه هـــو محاولتـــه النـــزوع إلـــى التجديد والابتكار وما هو معروف عن الشاعر الزهاوي من إبداعات جديـــدة وابتكـــارات طريفة*(7)

فالتشابه الأسلوبي هو الذي أغرى المهدوي بتبني الاتجاه التجديدي في القصيدة العربيـــة، ولذلك نجد أن نزعة التجديد الشعري كانت تراود المهدوي وتملأ فكـــره وتعانق وجدانـــه الشعري، وبالرغم من أن المهدوي كان معاصرا لأعلام المدرسة الكلاسيكية قارئـــاً لهـــم ومتأثراً بهم ومساهماً معهم في إثراء القصيدة العربية ، بالرغم مـــن ذلـــك كلـــه ،إلاّ أن محاولته التجديدية التي كان الشاعر يطمح إليها في مشروعه الشعري كانت محدودة للغاية ولم تأخذ إطارها الفني الواسع، وهي كانت دعوة للتجديد أكثر من كونها ممارسة تجديدية واقعية على مستوى النص الشعري،ومن هنا نرى أن المهدوي لم يخرج فـــي مشـــروعه التجديدي عن أطار المدرسة التقليدية ولم يتخذ التجديد عنده خطاً واضحاً بارز الملامـــح، أو رؤية فنية مكتملة السمات والأبعاد ، أي لم يكن التجديد عنده قضيـــة فكرية أساسية ، فالتجديد لم يتجاوز(محاولة تنويع القافية والتخلص مـــــن القيد الـــذي تفرضـــه القافيـــة الواحدة على الشعر، ومع ذلك فلم يكن جاداً في التقيد بهذه الدعوة فسرعان ما هجرهـــا إلى البناء العمودي للقصيدة سواء في ذلك قصائده الوجدانية أم السياسية)* (8) ٠

وقبل التطرق إلى إرهاصات الوعي القومي عند المهدوي لابد لنا من التعرض لظـــــهور التيارات القومية في العالم العربي والعوامل المؤثرة التي ساعدت على وجودها وتكوينها على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي ٠

فقد شهدت الساحة السياسية العربية ظهور العديد من الاتجاهات القومية التي كانت تنادي بالحرية والاستقلال من نير الاستعمار الغربي، وشعرت هذه الاتجاهات بخطورة التجزئة في ظل الهيمنة الغربية وضياع الهوية الثقافية والحضارية للأمة ، وقـــد كانـــت هـــذه الأصوات تنادي منذ زمن بعيد بالوحدة والتحرر مـــن كافة أشكال الاحتلال ، وربما كان صوتها خافتاً أيام الدولة العثمانية ، ولكن بظهور الاستعمار الغربي وهيمنته علـــى العالم

العربي وتقسيمه له وقمع حركات التحرر العربي، كل هذه الأحداث وضعت هذه الجماعات أمام التحدي والمواجهة التاريخية ٠

وبدأت طلائع الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حيث يرى البعض أن من ظواهر الوعي القومي واليقظة القومية هو محاولات بعض رموز الفكر السياسي العربي إلى أنشاء جمعيات سياسية تطالب بحقوق العرب السياسية الكاملة في ظل الهيمنة العثمانية المطلقة على المجتمع العربي ، وكذلك إيقاظ الشعور القومي بخطورة المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها الأمة،ومن أهم هذه الجمعيات (جمعية حفظ حقوق الملة العربية) التي نشرت نداء إلى العرب من مسلمين ومسيحيين تطالبهم بالوحدة من اجل مواجهة السيطرة العثمانية على مقادير الأمة*(9)

ثم توالت الجمعيات السياسية في النشوء ، ونذكر منها (جمعية الإخاء العربي) التي تأسست في الأستانة عام (1908) ثم جمعية المنتدى العربي والجمعية القحطانية اللتان تأسستا عام(1909) والجامعة العربية (1910) والجمعية الإصلاحية (1912) وجمعية العهد (1913)*(10)٠

وكان دور هذه الجمعيات يتركز على الاهتمام بالحقوق السياسية والاجتماعية للأمة، وكذلك مطالبتها بالحقوق الدستورية، قبل المطالبة بإقامة البرلمان العربي، وإنشاء الصحف والمجلات التي كانت تنشر باللغة العربية وتكون غير خاضعة للسلطنة العثمانية، ومحاولة تغيير المناهج التعليمية التي كانت تدرس باللغة التركية دون العربية ،ويبدو إن دور هذه الجمعيات كان دوراً محدوداً للغاية بسبب ضعف الوعي الاجتماعي والثقافي لأغلب الشعوب العربية آنذاك ٠

وفضلاً عن ذلك فقد رافق نشوء هذه الجمعيات حركة أدبية وثقافية واسعة شملت العديد من الكتاب والشعراء والمفكرين الذين حاولوا بعث الشعور القومي في الذات العربية ومحاولة إحياء تراث الأمة وتاريخها الزاخر، ولعل من هؤلاء (اليازجي، والكواكبي، ويوسف النبهاني ،وأديب اسحاق)، ولم يكد فجر القرن العشرين ينبثق حتى كانت الذات العربية تستيقظ من سباتها العميق، وأخذت العاطفة القومية تحرك القلوب المشاعر(11) ٠

وكان للمشاركة الليبية دور بارز في إنهاض الوعي القومي العربي، حين قام عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب بالمشاركة في اجتماعات اللجنة المركزية لجمعية

الاتحاد والترقي سنة 1910، وقد ألقى خطاباً جريئاً تعرض فيه إلى نقد السياسية التركية في العالم العربي ومحاولات الأتراك طمس الهوية العربية وأذابتها داخل كيان السلطنة العثمانية، والاستخفاف بحقوقها السياسية والاجتماعية*(12)٠

وتطور الوعي القومي تطوراً ملحوظاً بعد السيطرة الغربية على الأمة،فبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، حاولت القوى الغربية تقسيم الكيان العربي إلى مناطق نفوذ غربية ، حيث استولت بريطانيا على العراق ومصر والسودان والأردن وفلسطين،بينما سيطرت فرنسا على سوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب، ووقعت ليبيا تحت نير الاستعمار الايطالي ،وقد تم هذا التقسيم ضمن اتفاقية سايكس– بيكو التي وقعتها بريطانيا مع فرنسا ، ثم تلا ذلك إصدار وعد بلفور المشؤوم عام (1917) الذي يطمح إلى إقامة كيان مسخ للصهيونية في قلب العالم العربي والذي يعمد إلى تكريس واقع التجزئة بين أقطار الأمة وازدادت المعركة حدة وشراسة مع ظهور الاستعمار الجديد الذي لم يكن استعماراً اقتصاديا فحسب، وإنما كان استعماراً ثقافيا وحضاريا حاول أن يجرد الأمة من كافة مقوماتها الثقافية ، والحضارية تحت مسميات وذرائع شتى، فقد جاء الاستعمار من أجل تكريس واقع التجزئة القومية وتشجيع النعرات الطائفية والعرقية من اجل تمزيق المجتمع العربي إلى كيانات ضعيفة يسهل التحكم بها ، ثم حاول الاستعمار توجيه الاقتصاد والمجتمع نحو الاعتماد المباشر والكلي على الغرب ومحاولة تبني تقاليده وأفكاره من أجل أن تكون تلك الأفكار والمعتقدات هي البديل الثقافي للوجود الحضاري العربي ، وهكذا أصبحت المعركة معركة قومية شاملة، فقد كانت معركة الاستقلال القومي في البدء ثم أصبحت معركة الوجود القومي فيما بعد (*13)٠

ولذلك فقد كانت معركة الدفاع منذ البدء معركة الدفاع عن اللغة العربية كونها ابرز مميزات الوجود القومي ، وكذلك كانت معركة الدفاع عن الثقافة العربية ومنجزاتها ، والتاريخ العربي وبطولاته، وقد بدأت مع بداية النهضة العربية حركة قومية سياسية من جهة، وحركة ثقافية من اجل إحياء اللغة وتجديد الأدب والفكر من اجل بعث الحضارة العربية وتجديد مقوماتها الأساسية التي تساعد على تكوين الذات العربية الأصيلة وهي تواجه محاولات التجريد الثقافي والحضاري من جهة أخرى*(٠14)

ويرى احد الباحثين أن من المناسب قبل كل شيء من اجل التحرر من القبضة الاستعمارية والتوغل الأجنبي الطاغي، أن يقف الفكر العربي مسافة ، أي أن يرفض كل امتزاج وأن يطرح نفسه كائناً أصيلا آخر، وأن يحدد نفسه انطلاقا من تأريخه ومن أرادته الذاتية به، فاكتشاف الذات العربية والهوية مرحلة مهمة من مراحل الصراع الثقافي مع الآخر*(15)

ومن هنا نرى أن المعركة التي خاضتها الأمة هي ليست معركة تحرر واستقلال ووحدة فحسب ، بل هي معركة تأكيد الوجود الحضاري والثقافي لهذه الأمة التي كانت تقود العالم في مرحلة تاريخية معينة وكانت إشعاعاتها الحضارية ، تغطي جانباً واسعاً من أرجاء المعمورة ، ومن دون أن تلغي هذه الإشعاعات الحضارية الهوية الثقافية للشعوب الأخرى، من دون أن تكون هناك هيمنة فكرية تسلب الآخر حرية الرأي والثقافة والانتماء الحضاري، ومن هنا يمكن الانتباه على العلاقة الجدلية بين الازدهار الثقافي والنهوض القومي ، فالثقافة جزء من منظومة الصراع القومي ، ولذلك فأن الازدهار القومي ، لابد أن يصاحبه الازدهار الثقافي ، ومن هنا كانت المعركة الثقافية ضد الاستلاب الفكري والخواء الثقافي لا تقل شأناً عن المعركة القومية ، لأن مفاهيم الهيمنة هي ليست مفاهيم سياسية فحسب بل هي مفاهيم شاملة تشمل السياسة والاقتصاد والثقافة والمجتمع ، وأن التصدي لهذه المحاولات لابد أن يكون تصدياً شمولياً يتبنى كل الأطر الأيديولوجية التي تحاول أن تهيمن على الفكر العربي وتسعى إلى تجريده من هويته الثقافية وانتمائه الحضاري، وما المحاولات التي قام بها الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي ما هي إلا محاولات أيديولوجية شاملة، حاولت أن تسلب الإنسان العربي هويته وتجعله كائناً ثقافياً مقطوع الجذور، ومفرغاً من المحتوى الثقافي العربي، ومحاولة ملئه بثقافات وافدة تختلف اختلافا كبيراً عن الرؤى الثقافية والحضارية التي يؤمن بها والتي تشكل شخصيته التاريخية الممتدة عبر جذور التاريخ ، فالفكر العربي وعى منذ اللحظة الجنينية الأولى إلى محاولة احتلال الإنسان وفكره قبل احتلال الأرض ، ولازال المخطط الإيديولوجي الغربي يمارس هذا التفكير وهذه الاستراتيجية حتى بعد رحيل قواته العسكرية من الأراضي العربية .

وفي خضم هذا الصراع الأيديولوجي يبرز دور الفكر والأدب في تشكيل الوعي الاجتماعي لخطورة المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها الشخصية العربية ،فالفكر العربي ظل يحاول منذ اللحظات التأسيسية الأولى في تحريك الواقع الاجتماعي وتوعيته ومحاولة تعبئة الأفراد والجماهير إلى خطورة المرحلة ،ومحاولة خلق مجتمع واع يمارس دوره الحضاري ويواجه كل حالات الإحباط والقنوط والضياع الفكري والنفسي،فالأديب والمفكر لا يعيش خارج إطار المجتمع الذي ينتمي إليه بل هو في قلب الأحداث يمارس دوره الفكري الرائد في حركة التغيير الثقافي، وليس الأدب تعابير جمالية خالصة تهدف إلى المتعة الذاتية المجردة فحسب ، بل هو محاولات فكرية جادة لتغيير الواقع الإنساني نحو الأفضل والأكمل ، بالأدب يتسامى بالإنسان إلى القيم الإنسانية النبيلة (وقد برهنت تجربة القرون الطويلة من الأدب الإنساني أن البشرية لا تحتفظ الأ بما ينسجم مع قيمها النبيلة ويساعدها على دفن جوانب النقص فيها وتجاوزها) *(16) ٠

ومن هنا نرى أن الأدب يقوم بدور مهم في أحداث عملية التغيير الاجتماعي إذا ألتزم الأديب بالقضايا الفكرية التي يعيشها المجتمع، وبذلك يؤكد الأديب دوره القيادي الفاعل في تشكيل التطور الاجتماعي من خلال إذابة (الأنا) الفردية للأديب في (الأنا) الاجتماعية الواسعة ، من دون أن يكون الشاعر ملزماً بذلك ، فالالتزام كما يراه البعض هو ليس الإلزام أو أرغام الأديب على كتابة الأفكار إلتي لا يكون قادراً على الاقتناع بها أو الأيمان بضرورتها الحتمية في أحداث فعل التغيير ، وإنما تذكير الأدباء بقيمة السلاح الذي يمتلكونه وبقدرتهم على خلق التأثير العاطفي على المشاعر الإنسانية وتوجيه المجتمع إلى الآفات التي يتخبط بها، كالجهل والتخلف وضياع الذات الثقافية *(17) ٠

ومن هنا وعى الشاعر العربي خطورة المرحلة التاريخية التي ينتمي إليها فكرياً واجتماعيا ، وحاول جاهداً أن يؤسس مفاهيم الوعي الثقافي والحضاري داخل كيان المجتمع العربي الذي كان يعاني انعدام الرؤية الثقافية ، وتخلف الفكر الاجتماعي وضياع الهوية العربية الأسلامية٠

في ظل هذه الظروف وعى الشاعر الليبي هذه المخططات الفكرية، وأن كان ذلك الوعي ينتمي للظرف التاريخي وأبعاده السياسية التي كان الشاعر يعيش فيها، فلا يمكن فصل الوعي القومي عن مرحلته التاريخية التي ظهر فيها، أو الحكم عليه من خلال منظور

تاريخي يختلف عنه لأن الحكم سوف يكون تعسفياً أذا حاول فصل أبعاد الوعي القـومي عن السياق الزمني والتاريخي، فالعلاقـة بين الوعي والتاريخ الذي يشكله هـي علاقـة جدلية متنامية، ومن هنا نرى أن الشاعر المهدوي كان يعبر عـن أفكاره القومية ضـمن حدود الظرف التاريخي الذي عاشته الأمة والذي شكّل في ذهن الشاعـر أبعاداً قوميـة مهمة يمكن رصدها في ديوان الشاعر من خلال العديد من النصوص الشعرية ٠

وقبل التطرق إلى النصوص الشعرية التي تحمل مضامين قومية ، لابـد مـن التعـرض باقتضاب إلى الحياة الاجتماعية للشاعر التي نرى تأثيرها الواضح فـي صـياغة وعـي الشاعر وتشكيل رؤيته الثقافية التي كان يتعامل بها مع الأحداث التي عاشتها البلاد العربية ٠ أبصر الشاعر النور في مدينة(فسّاطو) وهـي إحدى مدن الغرب الليبي عام 1898 ف وكان والده رمزاً من رموز السلطة العثمانية آنذاك، فقد كان يشغل منصـب قـائم مقـام المدينة، ولذلك كان الشاعر ينحدر مـن عائلة موسرة كانـت تحظـى بمكانـة سياسـية واجتماعية مهمة غي ذلك الوقت ،وربما أدت دوراً سياسياً بارزاً في صـياغة الأحـداث السياسية في تلك المدينة، وتمتعت بالمكانة الاجتماعية المرموقة اللائقة بها ،وهذا المركز الاجتماعي قد هيأ للشاعر فيما بعد الإطلاع على ثقافات متنوعة شكلت وجدانه الشـعري وشخصيته الأدبية ووعيه القومي٠ *(18)

وقد نشأ الشاعر في مسقط رأسه(فسّاطو)ردحاً من الزمن ثم أنتقل أبوه إلى مدينة(نالوت) وهي مدينة تقع في أقصى الجبل الغربي،وكان هذا الانتقال هو تغيير الموقع السياسي الذي كان يتمتع به والد الشاعر ، فرجال الإدارة في ذلك الوقت كانوا يتبعون إلى سلطة الوالي العثماني الذي يكلفهم بأداء الواجبات الإدارية والانتقال من مكان إلى آخر حسب مقتضيات الأحوال السياسية والإدارية آنذاك، وبقى الشاعر في(نالوت) مدة سبع سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم الذي قد بدأ في حفظه في مسقط رأسه، وبعد ذلك أنتقل أبـوه إلـى مدينـة مصراتة ، فدخل الشاعر المهدوي المدرسة التركية فيها وتلقى دروساً في اللغة الفرنسـية واللغة التركية الت] كانت لغة التعليم فـي ذل: الوقت، ثم أنتقل الشاعر مع والـده إلـى مدينة الزاوية الغربية وحصل على الشهادة الابتدائية في مدينة الزاوية ٠*(19)

ومن هنا نرى أن هناك ثلاث مراحل أولية في حياة الشاعر شكلت وعيه الثقافي، فقد بـدأ تعليمه في (فسّاطو) وتابع تعليمه الابتدائي في مصراته وأتمه في مدينة الزاوية ، ويبـدو

أن الحياة السياسية التي كان والده ينتمي إليها لم تكن مستقرة في ذلك الوقت ويتضح ذلك من خلال انتقاله من مدينة إلى أخرى في فترة وجيزة ، وعند وقوع الاحتلال الإيطالي عام 1911 كان رفيق في مدينة الزاويتة الغربية ، إذ ذكر الشيخ الطاهر الزاوي (إن والده كان موظفاً بمدينة الزاوية التي التحق بمدرستها وحصل فيها على الشهادة الابتدائية التركية وكان التعليم بالغة التركية لأنها اللغة الرسمية للدولة ، ولما احتلت طرابلس سنة 1911 كان والد رفيق موظفاً بالزاوية الغربية برتبة قائم مقام)* (20) ثم تنقطع أخبار العائلة حتى هجرتها إلى الإسكندرية في مصر عام 1912 ، أي بعد عام واحد من دخول القوات الإيطالية، وربما كان السبب في ذلك هو الاضطهاد السياسي الذي تعرضت له البلاد أبان الغزو الإيطالي، وربما كان الاضطهاد أشد مرارة وأكثر قسوة على رموز الحكم والسلطة إثناء الحكم العثماني ومنهم عائلة الشاعر التي كانت تتمتع _ كما ذكرنا _ بنفوذ سياسي مميز أيام الحكم الثماني ، ومحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى غفلت المصادر الأدبية والتاريخية عن ذكرها والإشارة إليها، وفي الإسكندرية تلك المدينة الحالمة الواقعة على البحر عاش الشاعر عصراً جديداً وحياة مختلفة عن الحياة التي كان يعيشها سابقاً ، فالإسكندرية في ذلك الوقت كانت بيئة ثقافية وأدبية مزدهرة ضمت العديد من الأدباء والمفكرين ، من أمثال عبد الرحمن شكري أحد أبرز رواد حركة الديوان، وكذلك خليل شيبوب وعبد اللطيف النشار وبيرم التونسي الذي ارتبط بعلاقة صداقة مع الشاعر المهدوي ، فضلا عن ذلك كانت الإسكندرية تضمُّ العديد من المدارس الحكومية منها : رأس التين ،والعباسية،ومدارس الجمعية الخيرية الأسلامية٠*(21) وكذلك وجود المجالات العديدة المختلفة الاتجاهات وحلقات الدرس التي كانت تضم الكثير من العلماء والفقهاء ، وفي هذه الأجواء الفكرية أخذ رفيق المهدوي يتلمس طريق العلم ، فدخل أحدى المدارس الفرنسية ثم انتقل إلى مدرسة رأس التين وبعدها إلى المعهد الديني حيث تلقى فيه دروساً في التفسير والبلاغة واللغة والحديث ٠ *(22)

وفي هذه المرحلة التاريخية بدأ وعي الشاعر بالتحرر والانطلاق واخذ وجدانه الشعري يتشكل من خلال إطلاعه على الحياة الثقافية في الإسكندرية وإطلاعه على أبرز المتغيرات الثقافية التي حفلت بها الاتجاهات الفنية السائدة في العالم العربي من خلال الأجواء الثقافية التي كانت تحفل بها هذه المدينة، وهذه المتغيرات سوف تؤثر تأثيراً

واضحاً على مستوى شعره وتطبعه بطابعها الخاص المميز، وربما تكون هذه المرحلة من أهم المراحل الثقافية والاجتماعية التي عاشها الشاعر المهدوي، ولكن المصادر غفلت عن الإشارة إلى الدور الاجتماعي الذي كانت تمارسه عائلة الشاعر المهدوي في الإسكندرية ، فلا نعرف عن حياة والده شيئاً وما هي الأعمال التي كان يقوم بها في تلك المدينة وما هي الظروف السياسية والاجتماعية التي أجبرته على ترك الإسكندرية وعدم الاستقرار بها !

بعد ذلك عاد الشاعر إلى أرض الوطن عام 1921 ، بعد أقامة في الإسكندرية دامت سبع سنوات نهل فيها الشاعر العديد من الآداب والمعارف، وأقام الشاعر في مدينة بنغازي وعيّن فيها معاوناً عربياً للحاكم التركي فيها ، وبقي فيها إلى عام 1925 حيث هاجر إلى تركيا للالتحاق بعائلته، ويبدو أن الشاعر في هذه الرحلة كان مكرها على مغادرة الوطن، وربما تكون الأسباب سياسية أو اجتماعية ، وربما تكون هناك أسباب أخرى مجهولة ٠ (23)

وبعد مرور بضع سنين عاد المهدوي إلى بنغازي عام 1934 ليمكث فيها سنتين ثم ينفى إلى تركيا عام 1936 ، وهناك عمل موظفا في دائرة(اسطنبول، وأدانة) التركيتين ، وظل يعمل هناك إلى نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945 ، وبعد هزيمة ايطاليا في الحرب وخروج قواتها من ليبيا ، تمكن الشاعر من العودة إلى الوطن ليشارك في الدعوة إلى الاستقلال والوحدة٠ *(24)

ووقف رفيق يدعو إلى الوحدة الوطنية والاستقلال ويدعو الشعب إلى الوقوف في وجه القوة البريطانية التي حاولت تقسيم البلاد إلى مناطق عديدة ، وشارك رفيق جمعية عمر المختار في المظاهرات التي جرت عام 1950 ، والتي كانت تنادي بالاستقلال والوحدة الوطنية ، وعلى أثر هذه الأحداث السياسية اعتقل الشاعر وادخل السجن ٠ *(25) ثمّ يأتي الاستقلال عام ١٩٥١ ، فيتغنّى به رفيق ويّعيّن في مجلس الشيوخ بعد أن فشل في الدخول إلى مجلس النواب عن طريق الانتخاب .(٢٦)

ويستمر رفيق في نقده ذلك العهد وما به من مساوئ ومظاهر انحلال في قالب من النقد اللاذع والسخرية لنواب ذلك العهد ووزرائه ، وعلى الرغم من انضمامه إلى مجلس الشيوخ إلاّ أنّه بقي مجاهدا ومناضلاً من أجل الشعب والدفاع عن حقوقه ولم يثنه المنصب الإداري عن ممارسة دوره النضالي في إحداث فعل التغيير الاجتماعي الذي كمان الشاعر

يصبو إليه ، وهكذا استمرّ رفيق بالعطاء حتّى وافاه الأجل المحتوم عام ١٩٦١على إثـر عملية جراحية أجريت له في اليونان وهو في طريق رحلته إلى تركيا .(٢٧)

ويلمس القارئ لشعر المهدوي أن الشاعـر يمتاز بحس قومـي واضح المعالم فـي شعره ، وقد حاول الشاعر فـي هذه القصائد أن يواكب الأحـداث السياسـية المهمـة التـي مرت بهـا الأمـة ، ويعبر عن تلك الأحداث اصدق تعبير حتى تحول نصـه الشعـري إلى وثيقة تاريخية تؤرخ حقبة تاريخية حفرت أصداؤها الكيان العربـي وتركت آثارا بارزة عليه ، فقد كان الشاعر يحس أحساسا عميقا بحاضر الأمة ومستقبلها ويستلهم الماضـي ضمن رؤيـة عصـرية واقعية تحث على العمل والاجتهاد ولـيس مجـرد التغنـي بأمجاد الآباء والأجداد ، ومن هنا نـرى الشاعـر يلتـزم القضـايا القوميـة التزاماً صادقاً أسفرت عنه العديد من القائد القومية ، التـي كان الشاعر ينادي فيها بالوحدة العربيـة الشاملة التي هي البديل السياسي للتخلص من السـيطرة الغربيـة والنهوض من حالة السبات العميق الذي أصاب جسد الأمة وفكرها وشل قـدرتها علـى الإبداع والتفكير وممارسة الدور الحضاري القيادي الذي كانت تمارسـه فـي تاريخهـا المشرق عندما كانت مصدرا من مصادر الإشعاع الفكري والحضاري فـي العالم ٠

وارتباط الشاعر بالأحداث السياسية يعبر عن الوعي السياسي الذي كان الشاعر يؤمن به في مرحلة التغيير الجذري التي كان الشاعر يطمح إليها، وشكل ذلك الوعي مساحة واسعة من المنجز الإبداعي للشاعر فلقد(كان ارتباط الشعر بالاتجاهات السياسية مظهرا واضحا، استنفذ كثيرا من النشاط الفني للشعراء ، بل أن بعضهم قد قصر جهوده عليه)*(28)

فالشاعر يستلهم الماضي التاريخي للأمة في معركة المصير والتحدي ونرى ذلك بقوله :

مجدّ تليدٌ ولكن ليسَ ينفعنـا إن كانَ للشرق أمجادٌ وسلطانُ
إن لَمْ تَكُنْ مثلَ آباءٍ لنا سلفوا فذكْرُنا فخرهَم عجزٌ وخسرانُ
مجدُ الأبّوةِ مجدٌ كاملٌ فـإذا لَمْ نُحيهِ فهو للأبناءِ نقصـانُ *(29)

وفي هذه الأبيات يدعو الشاعر إلى الإفادة من الماضي العريق للأمة العربية في مواجهة كل محاولات طمس الهوية الثقافية والحضارية للأمة من خلال تبنـي مفكريهـا الفكـر الغربي الدخيل من أجل تغيير الواقع وقطع كل الجذور التراثية التي تحملهـا الشخصـية العربية ، فالشاعر يحث الأمة إلى بعث حضارتها وتراثها الفكري والإنساني ، ولكن ليس

من خلال الفخر والاعتزاز بهما فحسب، بل من خلال العمل والمثابرة والاجتهاد ، وهي المعايير الحقيقية للوصول إلى المشاركة الحقيقية الفعالة في الحضارة المعاصرة بدلا من استهلاك أفكارها وقيمها الوافدة ، وهو في هذا الطرح يعبر بأسلوب بسيط عن آليات صنع الحضارة وأساليب أنتاج الفكر المعاصر ، فالرؤية الفكرية التي يطرحها الشاعر من خلال النص هي رؤية الامتداد الزماني بين الآباء والأبناء ، حين يعلن أن مجد الآباء هو مجد كامل حين يصل إلى الأبناء،ولكنه يتناقص أذا لم يقم الأبناء بأحيائه من جديد وبعثه ، فالتواصل التاريخي بين الأبناء والآباء يعتمد في رؤية الشاعر على استلهام الأسلوب ذاته من اجل بناء الذات العربية المفكرة المعاصرة القائمة على أسس العمل والتفكير والاجتهاد ، والمهدوي أحس أن المعركة مع المستعمر هي ليست معركة سياسية واقتصادية وحسب بل هي معركة شاملة تشمل الثقافة والحضارة والامتداد الزمني لهما عبر التاريخ، وتشمل الذات العربية التي يصوغها التراث الذي تنتمي له.

ويتفاعل الشاعر مع قضايا الأمة المصيرية ، ويعبر عنها أصدق تعبير في العديد من قصائده القومية، وتشغل قضية العرب المركزية ، قضية فلسطين مساحة واسعة في ديوان الشاعر، فالشاعر يعلن عن انتمائه العربي ويشارك الأمة الأحداث المصيرية التي خلفها الواقع الاستعماري ، فيعلن عن رفضه لواقع التجزئة العربية ، ويشجب كل محاولات الاستعمار البريطاني في زرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة ، من خلال وعد بلفورالمشؤوم عام 1917 ، وهو مشروع سياسي يهدف إلى تكريس التجزئة ومنع كل محاولة للوحدة ، وخلق حالة الاستقرار في المنطقة ، فيعبر الشاعر بحرقة وأسى عن هذا الواقع الأليم بقوله :

تكفى فلسطين إن شئتَ الدليل على ... ما كانَ في عامِنا الماضي من النُّوبِ
ضاعتْ فلسطينُ لا بالسيفِ من يدنا ... لكنْ بأصبعِ غدّارٍ ومنسحبِ
ضاعتْ بأيدي رجالٍ لا مرامَ لهم ... الاّ الحصول على الأموالِ والرتُبِ
بوعدِ بلفور ألقتْ بينهم وسعَتَ ... بنارِ فتنتها حمَّالةُ الحطَبِ
قدْ فرقتنا ومازالتْ تُفرّقنا ... عدوةُ الشرق والإسلام والعربِ(30)

فالشاعر في هذه الأبيات يعبر بألم وحرقة عن ضياع ذلك الجزء المغتصب من الأمة لأن ضياع فلسطين هو ضياع للأمة ، فقد ضاعت بسبب غدر البعض

وانسحاب البعض الآخر من المواجهة ، والشاعر كشف عن مكامن الجرح العربي النازف، فهناك أسباب خارجية خلفها الاستعمار البريطاني حين أعطى الوعد المشؤوم لإسرائيل ، وهناك أسباب داخلية داخل كيان الأمة وهو التخاذل وتشرذم الوجود العربي على الصعيد الجغرافي والسياسي وتغليب المصالح الذاتية على المصالح الجماعية، فأختلف العرب على حقهم بينما أجتمع الغرب على الباطل، وهذه المعادلة المأساوية في تاريخ هذه القضية .

ومن هنا نرى أن الشاعر يعبر عن الدور الذي لعبه الاستعمار البريطاني في تفريق شمل الأمة العربية والإسلامية إلى أشلاء متناثرة ثم محاولة زرع الكيان الصهيوني داخل الجسد العربي من اجل تكريس واقع التجزئة وعرقلة كل محاولات الوحدة بين أجزاء الوطن الواحد ، ويتابع الشاعر مشروعه القومي الذي يتمحور حول القضية المركزية فلسطين في نص آخر ومن زاوية أخرى فنراه يقول :

يا عامُ تقبلُ والحوادثُ جمّةٌ ... في الشرقِ يُوشكُ أن يشَّب ضرامُ
هذي فلسطيُن العزيزُة جرحها ... دامٍ يكابُد داءَه الإسلام
للهِ من كبدِ العروبةِ فلذة ... بالسيفِ يغصب حقّها وتضامُ
حقٌ كضوءِ الشمس غيَم حوله ... من وعدِ بلفور الأثيم ظلامُ
وعدٌ على انجازه قد أجمعوا ... رأيًا يخالفُ حكمه الإفهام
وإذا فلسطين العزيزة لم تُذُدْ ... عنها فانَّ مصيرها الإعدام
عارٌ على الأحرارِ أن لم ينقذوا ... وطنَ العروبةِ والحياةُ حرامُ
يا عامُ والأعوامُ قبلك أظهرتْ ... لبلادنا ما أضمر الظلام (31)*

وفي هذه الأبيات يتأمل الشاعر سيرورة الأحداث التاريخية التي أحدثت جرحاً غائراً في جسد الأمة ، حين يصور تلك المأساة الإنسانية وذلك الواقع العربي وإسلامي المفكك وهو يواجه اخطر التحديات المصيرية في التاريخ العربي المعاصر، ففلسطين لازال جرحها ينزف ضمن أطار واقع ساكن عربياً وإسلاميا ودون أن يكون هناك أي فعل تجاه الأحداث، وفلسطين هي فلذة كبد العروبة يغتصب حقها وتشعر بالضيم و الخسف والهوان في ظل واقع سكوني مستلب أضاع الحق العربي الذي كان واضحاً

كالشمس وقد حاك وعد بلفور عليه ستاراً من الظلام ، فذلك الوعد الذي أجمعت عليه القوى الغربية هو أجماع يخالف المنطق والبديهة، لأن الغرب ليس له أحقية امتلاك هذه الأرض حتى يكون حراً في التصرف فيها وإعطائها إلى من يشاء وكأنها جزء لا يتجزأ من ممتلكاته الخاصة وبالرغم مما يدعيه الغرب الليبرالي من قيم إنسانية لعل من أبرزها حق الشعوب في تقرير مصيرها، والحفاظ على كيانها الذاتي ، وتبقى هذه المأساة الإنسانية شاهداً حياً على ممارسات الفكر الغربي ، وستظل نتائجها مستمرة على مدى التاريخ السياسي العربي لذلك يحث الشاعر المجتمع العربي على الذود عن فلسطين والدفاع عنها وتحريرها والأ فسوف يكون مصيرها الإعدام والزوال عن مسرح التاريخ السياسي لان السكوت على ذلك ما هو الأ تكريساً للاحتلال وتثبيتاً للواقع وهروباً من مواجهة الأحداث ، فمن واجب الأحرار أن ينقذوا وطن العروبة من دنس الاحتلال ٠

وتبقى قضية فلسطين ركناً مهماً من أركان الوعي القومي عند اشاعر، وتتماهى أحيانا مع العديد من القضايا القومية الأخرى التي حاول الشاعر أن يعبر عنها في العديد من قصائده، فهذه القضية شغلت بعداً جوهرياً في فكر الشاعر ، ونراها تتردد في أبيات عديدة حين تمتزج مع أحداث سياسية أخرى شهدها العالم العربي عبر صراعه المرير مع الوجود الغربي ، كما نرى ذلك جلياً في قصيدته (أعياد الشرق) التي يصور فيها المهدوي جانباً من جوانب الصراع العربي ، ويتناول فيها الثورة التونسية ضد الاستعمار الفرنسي عام 1953 وفي هذه القصيدة يقول :

أما زالَ للأعيادِ في الشرق رونقُ وتونس في سيلٍ من الدمِ تغرقُ
أبعد فلسطين الشهيدة عندنا سرورٌ بعيدٍ ؟ نحن بالحزن أخلقُ
فلسطين لولا الغرب ماجاسَ حولها لشذاذ إسرائيل شعبٌ ملفقٌ
فلسطين لمّا يندملُ بعد جرحها وهاهو في الخضراءِ آخر يفهقُ
يضامُ هذا الشعبُ المطالب حقّهُ ويعدمُ رمياً بالرصاص ِ ويشنقُ
شقيقتنا بنت العروبة تونس تقلّب في جمر الطغاة وتحرقُ
ألاأيُّها الشرق أنتبه أن تونساً عليها جميع الغرب بالجور ِ مطبقُ
أذا لم تدافع كتلةٌ عربيةٌ يقامُ لها ميزانها حين تحنقُ

ويتحدّ الشـــرقُ الضعيـــفُ فأنـــه على ضعفـــه بالأتحادِ يـوفـقُ
أحذركم ياقوم مـــــن أصدقـــائنـا وأن أسرفـوا في حبهـَّم وتملقوا
فأنـــي أرى أشياء لوقلتُ أنهـــا تريبُ لقـال الناس أنـي محنـقُ (٣١)

وفي هـذه الأبيات يطرح الشاعـر تساؤلاً عـن جدوى الأعيـاد التـي تعيشها الأمـة وهي تعاني التمزق والفرقـة والتخلف عن، ركب الحضـارة ، فالعيـد الحقيقي في رؤية الشاعر يكمن في الخلاص من سيطرة الاستعمار ونيل الحرية والاستقلال ، وطموح الأمة في تحقيق الوحـدة الشاملة ، فالشاعر يرى أن عنفوان الأمة ينطوي في وحدتها الجغرافية عندما تذوب في كيان واحد ، وهذه الرؤية نجدها تتكرر كثيراً في قصائـد الشـاعر ، وهذه الأبيات تؤكد وحدة الانتماء العربي الذي كان المهدوي يدعو أليه دوماً حين يـربط أحداث الأمة وهي تواجه الواقع ذاته، فهذه المقارنة بين الأحداث السياسية أراد الشاعر من خلالها أن يوصل الرسالة إلى كل المثقفين العرب مؤادها أن الأحداث السياسية التي تعاني منها الأمة هي واحدة وان أختلف الاستعمار وأساليبه في السيطرة على الشعوب ، فتونس تغرق في دماء أبنائها المجاهدين ، وفلسطين تعاني من القتل والدمار والتهجير ، ولـولا الاستعمار الغربي لما أستطاع شذاذ اليهود بتكوين دولة لهم على أرض فلسطين ، بعد أن طردوا سكانها الأصليين واغتصبوا أرضهم ، هذا الجرح العربي لن يندمل بعد حتى ظهر جرح جديد في تونس الخضراء وهي تتقلب في جمر الطغاة ، فالذي يحدث فـي الشـرق العربي هو ذاته يحدث في المغرب مع اختلاف بعض الأساليب السياسية بين الاسـتعمار البريطاني والفرنسي ، فتونس ثارت تريد الاستقلال من الاستعمار الفرنسـي وخاضـت معركة دامية سقط فيها العديد مـن أبنائها الأبرار ، بالرغم مـن الفرنسيين هم أول مـن نادى بالحرية ، والإخاء،والمساواة، وهي أبرز أهداف الثورة الفرنسية ، ولكـن يبـدو أن النظرية شيء والممارسة الواقعية شيء آخر ، ويتساءل الشاعر كيف للإنسان الذي يؤمن بالحرية يجور على حرية الآخرين ويسلبها منهم ويفرض وجوده بالقوة عليهم ، فالحريـة هي مفهوم كلي شامل لا يمكن تجزئته حسب الأهواء والمصالح الذاتية ، وبعد ذلك ينبـه الشاعر الشرق العربي على مأساة الشعب التونسي الذي أطبقـت عليـه قـوى الغـرب الاستعماري ويدعو العالم العربي إلى الاتحاد وتنظيم الجهود السياسية حتى ولو كان ذلك

الاتحاد ضعيفاً، ويحذر الشاعر الشرق وبعض الدول العربية من الركون إلى بعض الدول الغربية التي تتملق ظاهرياً حيناً وتحوك المؤامرات السياسية د هذه الأمة حيناً آخر ٠ فالمعركة الحقيقية هي التي تخوضها الأمة من الداخل دون أن تنتظر عوناً من القوى الخارجية التي لا تراعي في ذلك سوى مصالحها الذاتية في المنطقة العربية ، ولا تكترث لما أصاب هذه الأمة من ويلات ودمار وتجزئة ، فالشاعر في أغلب قصائده القومية يركز على هذه الرؤية للأحداث السياسية التي مرت بالعالم العربي لأن المعركة القومية تبدأ من الذات العربية التي يجب أن تسعى إلى التحرر أولاً من كافة أشكال الهيمنة والاستلاب وعدم التأثر بالتيارات والمذاهب السياسية السائدة في العالم لأنها تيارات لا تعالج مشاكل الواقع العربي ولا تضع الحلول الجذرية لمعالجة مشاكله الذاتية، فكل مجتمع له خصوصيته التي يختلف بها عن المجتمعات الأخرى، وما ينفع لمجتمع معين قد لا يكون بالضرورة نافعاً لمجتمع آخر ، ومن هنا أدرك المهدوي أن سر قوة هذه الأمة وديمومتها يكمن في داخلها لو حاولت أن تكتشف ذاتها وتبحث عن هويتها الحقيقية التي تميزها عن الآخرين، دون أن يعني ذلك انغلاقها الذاتي وتقوقعها داخل إطار أيديولوجي ضيق لا تقوى على الإفلات منه ، ولذلك أدرك الشاعر في وعيه القومي أن قوة هذه الأمة مكنونة في أعماقها ، وهذا ما توضحه القصيدة (من ليبيا إلى مصر) التي نظمها الشاعر عند تأميم قناة السويس وجلاء القوات البريطانية من الأراضي المصرية ، وفيها يطرح الشاعر رؤيته القومية الداعية إلى الوحدة بين الأقطار العربية ، ويقارن بين الأحداث السياسية المعاصرة وبين الأحداث التاريخية التي عاشها المسلمون الأوائل ، ونراه يقول فيها :

يا مصر هذا أوان الجد فأتحدي وجاهدي في سبيل الله واجتهدي
يامصر ماظهر الأسلام منتصرا الأ بماكان في بدر وفي أحد
الحق ينصره صبر وتضحية لا خوف من قلة الأعداد والعدد
والله لو صدقت في الذود عزمتكم لما أفتقرتم إلى عون ولا عدد
لو صح عزم فكل الكون يقهره فرد ولم يعتمد يوما على احد
ذودوا عن النيل ولتجر القناة دماً كالسيل يدفع بالغثاء والزبد
قلب العروبة يشكو مألم به فكيف لا يتأثر سائر الجسد

عار على دول في الشرق يجمعها دين وتشقى برأي غير متحـــــد
عدوة الشرق والأسلام مـــــافتئت تفت بالدس والتفريق في العضد(32)

وفي هــذه الأبيات يحاول الشاعر أن يستلهم الماضي العريق لهذه الأمة المتمثل بالإسلام، ويقارن بين الأحداث السياسية المعاصرة وبين الأحداث التاريخية التي شــهدها الإســلام والمسلمون ، ويدعو الشعب المصري إلى الوحدة فقد حان وقت الجد، ويــدعو الشــاعر كذلك إلى الجهاد في سبيل الله من أجل الدفاع عن الوطن والاستقلال والتحرر الذي حققته مصر على يد الضباط الأحرار عام 1952 ، وقد أدرك هؤلاء إن الاستقلال السياسي لا يكون كافياً الأ أذا كان مقترناً مع الاستقلال الاقتصادي، ولذلك حاولوا تأميم قناة السويس لتمويل بناء مشروع السد العالي ، وأغضب هذا القرار كلاً من بريطانيا وفرنســا فقامتــا بشن عدوان ثلاثي بالاشتراك مع إسرائيل على مصر ، وحاول المهدوي أن يســاهم فــي تشكيل وعي الجماهيــر عندما نظم هذه الأبيات التي يحث فيها المصريين على الصــمود والثبات والتحدي ، من أجل أثبات الذات العربية المسلمة وتحديد إطارها الفكري والثقافي الذي يختلف مع الآخر ، ولذلك حاول الشاعر استلهام تراث الأمة ومخزونهــا العقائــدي الذي شكل صيرورة الذات العربية وحدد أبعادها الحضارية، فهو يعود إلى التــاريخ مــن أجل أعطاء ديمومة الحاضر من خلال التذكير بغزوة بدر وغزوة أحــد حــين أنتصــر المسلمون فيهما بقوة الأيمان وبقوة المبادئْ المترسخه في أعماق الذات والتي لا تســتطيع تغييرها أقوى جيوش العالم ، فأهم مبادئ المعركة أن نكون نؤمن أيماناً حقيقياً بالمبــادئ التي نناضل من أجلها ، والحق يكون منتصراً دائماً بالصبر والتضــحية وقــوة المبــادئ ويستطيع هذا الحق أن يهزم كل قوى الظلام المحيطة بــه دون أن يعتمد في ذلك علــى أحد ، فمصر قلب العروبة النابض يشكو من الألم فينتقل الأذى إلى سائر الجسد العربي ، وهنا يدخل الشاعر في تناص مع الحديث النبوي المعروف ، وهو توظيف فني في النص الشعــري استطاع المهدوي أن يدخله داخل نسيج النص ويربطه ربطاً عضوياً مع بقيــة الأبيات ،وينتقل الشاعر بعدها إلى وصف حالة الاختلاف بين كيانات الأمــة الواحــدة ، ويطرح تساؤلاً حول هــذه الإشكالية التي عانت منها الأمة وسوف تعاني ، مفاده كيــف لهذه الأمة أن تختلف وهي تحمل فــي أعماقها جوهر الوحدة وكل مقوماتهــا الفعليــة ، وذلك يتمثل في دين التوحيد الذي أستطاع عبر التاريخ أن يوحدها لحقبة زمنية طويلــة ،

ويلقي الشاعر اللوم على عدوة الشرق والإسلام (بريطانيا) التي تسعى دوماً إلى تفريق شمل الأمة من خلال أثارة النعرات الطائفية والمذهبية التي تقف في وجه كل محـــاولات الوحدة العربية الشاملة ٠

فالشاعر في هذه الأبيات يدعو للعودة إلى الجذور الإسلامية التي وحدت هذه الأمة عبـــر تأريخها العريق واستطاعت أن تكون مصدراً من مصادر الإشعاع الفكـــري والثقـــافي ، والبديل الذي يطرحه الشاعر هنا بعـــد أن رفض في أبياته السابقة الاعتماد على الفكـــر الغربي في تحديث المجتمع العربي وتحرره واستقلاله من كافة أنماط الهيمنـــة السياســـية والاقتصادية والفكرية، هو البديل الإسلامي الذي أستطاع عبر التاريخ أن يوحد هذه الأمة في منظومة واحدة بعد أن كانت قبائل متناثرة في جزيرة العرب، وأن ينطلق بها إلى آفاق العالم من خلال الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى أقاصي الهند شرقاً وبلاد الأنـــدلس غرباً ، فالهوية العربية هي الهوية الإسلامية ، التي تستطيع أن توحد الكيانات السياســـية للعالم العربي ضمن منظومة سياسية وفكرية واحـــدة ، والشـــاعر يســـتلهم الطروحـــات التاريخية المتمثلة بالإسلام من أجل معالجة المشاكل السياسية الواقعية المعاصرة ،وهذا ما نلمسه في العديد من الأبيات التـــــي خاطب بها الشاعر الفكر القومي العربـــــي ٠

ونرى من خلال ذلك إن الوعي القومي عند الشاعر لم يعد وعياً ناقـــداً لواقـــع التجزئـــة العربية وكياناتها الممزقة وحسب ، بل أن الشاعر حاول أن يضع اليد على نقاط الضعف ومواقع القوة للقومية العربية وهي تواجه مرحلة تشكيل الذات والهوية، وحاول الشاعر أن يطرح البديل الملائم في تصوره الذي يعمل على جمع شتات العالم العربي في كيان موحد قادر على مواجهة التحديات المصيرية التي تواجـــه العالم العربي والإسلامي ٠

فالوحدة هي الخيار الأوحد الذي ظل الشاعر يطرحه في أغلب القصائد القوميـــة وهـــــو يخاطب الشعوب العربية في كل الظروف السياسية التي مرت بها، ونـــراه فـــي قصـــيدة أخرى يخاطب الجامعـــة العربيـــــة بقولـــه :

وهاهـــــي الوحـــدة الكبرى تمثلها ... فـــي الشرق جامعـــة أضحى لها شأن
والحب أن صح لم يحتج تبادلـــــه ... لأن يقام له بالقول برهـــــــــــــان
لكن من عجب يدعو إلـــــى أسف ... مصر يقال لها: مصر، وســـــــــودان
وهل أفاد سوى تقسيم مملكـــــة ... مذ قام في سوريا : شام ولبنـــان (33)

وفي هذه الأبيات يسعى الشاعر إلى تأكيد وعيه القومي عندما يناقش قيام جامعة الدول العربية التي قامت عام 1948 ، وضمت العديد من الأقطار العربية، فالوحدة القومية التي كان الشاعر يطمح في وجودها هي مشروع سياسي كبير ربما تكون نواته الأولى جامعة الدول العربية ، ولكن الشاعر يطمح إلى مشروع أكبر من ذلك ، فهو يتعجب من قيام جامعة الدول العربية ، والأقطار العربية بدأت تعاني انقسامات داخلية مثل مصر والسودان اللتين كانتا إقليما واحداً ، وكذلك سوريا ولبنان ، فهل أصبحت جامعة الدول العربية مشروعاً سياسياً يحاول أن يكرس واقع التجزئة بدلاً من أن يسعى إلى بناء بذور البناء القومي الشامل ؟! فهذه الجامعة لم تحقق الحلم الذي كان الشاعر يتوق إليه، ولذلك لم يكن الشاعر متحمساً لقيامها، وأحس منذ البداية أن المشروعات النظرية ليس هناك فائدة في وجودها أذا لم تتحول إلى واقع سياسي ملموس ترى صداه الشعوب العربية التي تسعى جاهدة في السير على طريق الوحدة الشاملة ٠

ومن خلال هذه النصوص الشعرية ندرك أن المهدوي كان يمتلك وعياً قومياً صادقاً عبرت عنه العديد من القصائد والمقطوعات الشعرية ، وحاول الشاعر من خلال هذه النصوص طرح العديد من الأفكار والرؤى التي كان يراها الشاعر مناسبة لقيام الكيان القومي العربي الواحد ، ولم يقتصر جهد الشاعر على نقد الحالة السياسية التي تركها الاستعمار على الواقع العربي فحسب، بل حاول أن يطرح البديل الملائم الذي يراه مناسباً لحل إشكالية الواقع السياسي العربي الممزق الذي تسعى كل القوى الغربية إلى تثبيته في الذهن العربي قبل توطيده على الأرض ، ولذلك وعى الشاعر خطورة المرحلة التاريخية وخطورة الصراع الفكري والثقافي مع الأخر ومن هنا نجد أن تركيز الشاعر ينصب على مسألة مهمة شغلت وجدانه الفكري ، وهي مسألة الوحدة السياسية الشاملة بين الأقطار العربية ، من خلال التركيز على أبرز مقومات الوحدة التي يمكن أن تكون عنصراً فعالاً في تأسيس الوعي القومي العربي الشامل ، داخل ذهنية الأجيال العربية ، فالوحدة العربية كانت حلماً يراود مخيلة الشاعر وإحساسه القومي ، والمشروع القومي نراه متجسداً في العديد من الأبيات والقصائد التي نظمها الشاعر عندما تعرضت الأمة للتحديات التي واجهت كيانها وشخصيتها، وعندما عجز الشاعر عن تحقيق ذلك الحلم الكبير على مستوى الواقع حاول أن يحققه على مستوى النص الشعري ٠

الهوامش والمصادر

1)– خليفة محمد التليسي ، رفيق شاعر الوطن ، الدار العربية للكتاب، ليبيا–تونس ، **1988** ، ص **39** ٠

2) – د٠ واصف أبو الشباب ، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت– **1988**، ص **16**٠

3) – المصدر نفسه، ص **176**٠

4) – ينظر محمد مفتاح، المفاهيم معالم، ط **1**، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، **1999**، ص **40**٠

5)– التليسي، مصدر سابق، ص **40**٠

6) التليسي، مصدر سابق، ص **57** ٠

7) –ينظر د٠ بشير الهاشمي ، دراسات في الأدب الحديث، ط **1**، الدار العربية للكتاب، ليبيا_ تونس ، **1984**، ص **89-90**٠

8)–المصدر نفسه ، **92**٠

9)– ينظر أنيس المقدسي، الأتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط **7**، دار العلم للملايين ، بيروت ، **1982**، ص **103**٠

10)– المصدر نفسه ، **124**٠

11)–المصدر نفسه، ص **113** ٠

12)– ينظر المصدر نفسه ، **122**٠

13)– ينظر ناجي علوش، من قضايا التجديد والألتزام في الأدب العربي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا–تونس ، **1978**، ص**9** ٠

14)– ينظر المصدر نفسه، ص **13**٠

15) – ينظر أنور عبد الملك، الفكر العربي في معركة النهضة ، ط **3** ، دار الآداب، بيروت، **1981**،ص**34**٠

16)– د٠ عماد حاتم، النقد الأدبي وأتجاهاته الحديثة، ط١،دار الشام للتراث، بيروت ، **1988**، ص **38**٠

17) – ينظر المصدر نفسه، ص **63** ٠

18)– ينظر د٠ طه الحاجري ، دراسات وصور من تاريخ الحياة الادبية في المغرب العربي، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، **1983**، ص **201** ،وينظر كذلك الطاهر بن عريفة، التعريف بالأدب الليبي، ط١، دار الحكمة، طرابلس، **1997** ، ص **58** ٠

19)– ينظر د٠ محمد طه الحاجري ، مصدر سابق، ص **250** ٠

20)– الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، ط١، مكتبة الفرجاني، طرابلس **1961**،ص**59** ٠

21)– ينظر د٠ محمد طه الحاجري ، مصدر سابق، ص **215-217** وينظر كذلك د٠ محمد دغيم ، مهرجان رفيق الأدبي، ط١، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى، **1993**، ص **29** ٠

22)– ينظر محمد دغيم، مصدر سابق، ص **29** ٠

23)– ينظر الطاهر الزاوي، مصدر سابق ،ص **60** ، وينظر كذلك د٠محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في ليبيا العربية، ط١ ، دار الجيل، بيروت ،**1992**،ص **39**٠

24)– ينظر محمد عبد المنعم خفاجي ، مصدر سابق، ص **388**٠

25)– عبد ربه الغناي،رفيق في الميزان ، ط١، مكتبة الأندلس، بنغازي،**1967**،ص **290**

26)– ينظر الطاهر الزاوي، مصدر سابق،ص **60** ٠

27)– خير الدين الزركلي، الأعلام، ط**10**، دار العلم للملايين، بيروت، **1992**،ص**126**٠

28)– خليفة التليسي، مصدر سابق ، ص **134**٠

29)–المصدر نفسه، ص**144-145**٠

30)– المصدر نفسه، ص **143**٠

31)–ديوان أحمد رفيق المهدوي، الفترتان الأولى والثانية،ط١، الطبعة الأهلية، بنغازي، (د٠ت)، ص **132-133**٠

32)المصدر نفسه، ص**60**٠

33)– المصدر نفسه، ص**124**٠